بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الأمين ، محمد بن عبدالله ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبع هديه وسنته ، وسار على نهجه القويم إلى يوم الدين .

وبعد ، فهذا هو البحث الثالث من مشروع دراسات نقدية في ظلال الآيات الأخيرة من سورة الشعراء ، الذي من مقاصده إعادة قراءة بعض جوانب الأدب وظواهره الفنية في حمى مفهوم الأدب الإسلامي ونظريته ، إذ سبق أن قرأت الشاعر وتجربته[1] ، والهجاء[2] ، قراءة محدودة بمطالب خاصة ، من الإيجاز دون التفصيل ، والنظرية دون التطبيق والتحليل .

وتأتي هذه الدراسة «الغزل - ضوابط النظرية وظواهر العدول» محاولة للإحاطة بأبعاد النظرية الإسلامية في مفهوم الغزل من حيث أسباب الرفض ، ومسوغات القبول ، واجتهاد لمقاربة النص الإبداعي في زمن الصحابة وعدد من التابعين ؛ لرصد مدى الانضباط بالقاعدة ، وكشف آثار العدول عنها .

واقتضى ذلك تخصيص باب للغزل ونظريته الإسلامية ، وباب آخر للرؤية الشعرية ، أما باب نظرية الغزل فينفتح على عدد من المرتكزات :

أولها : قراءة تراثية للازم دلالات الآيات الأخيرة من سورة الشعراء عند المفسرين ، بإشارتهم لبعض أنماط الغزل المذموم كالتسيب بالحُرُم ، والابتهار والابتيار وسرد أحداث الزنا ، وتحديدهم لنماذج شعرية دالة على ذلك ، من شعر الفرزدق وكثير عزة وعمر بن أبي ربيعة . وينفتح على قراءة حديثة أخرى لبعض آيات القرآن الكريم في تنظيم علاقة الرجل بالمرأة في قوله تعالى : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ .

---

(١) نشر في إسلامية المعرفة (عدد خاص عن اللغة العربية وآدابها) العدد الثاني عشر ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

(٢) نشر في بحوث المؤتمر الثاني لكلية الآداب - جامعة الزرقاء الأهلية (الأدب الإسلامي : الواقع والطموح) ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

وتنتهي هذه القراءة التراثية والحديثة إلى القول : إن القرآن الكريم عرض للونين من الغزل ، أحدهما : منكر مذموم ؛ لأن التلذذ فيه بالجمال مصادم للغاية الكونية التي أرادها الله من اجتماع الرجل بالمرأة في حفظ النوع الإنساني ، وديمومة بقائه واستمرار نمائه . وثانيهما : مباح لا تثريب على فاعله إن باح لسانه بمضمر سره ، ومكنون صدره ، سواءً أكان تعريفاً برغبة الزواج أم تصريحاً بالمودة ؛ لتوثيق علائق الزوجين ، وترسيخ عرى المحبة والرحمة بين المتآلفين .

وثانيها : التوجيه النبوي الشريف للغزل ، إذ للمباح منه ذكر صريح ، وللمكروه منه تعريض فصيح ، فمن إباحته قوله عليه الصلاة والسلام : «أبعثتم الجارية إلى بيتها ، . . فهلا بعثتم معهم من يغنيهم :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم

. . . فإن الأنصار قوم فيهم غزل» .

ومن التعريض بقبح الغزل وكراهته قوله عليه الصلاة والسلام : «إن أخا لكم لا يقول الرفث» ، فضلاً عن وقوع الغزل المرفوض في لازم قوله عليه الصلاة والسلام «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً» ، ونهيه عليه الصلاة والسلام الذي جاء في حديث التابعي عامر بن شراحيل الشعبي «إنما نهانا رسول الله ﷺ عن الشعر إذا أتيت/ أبنت فيه النساء وازدري فيه الأموات» . أما حديث سويد بن سعيد الحدثاني «من عشق فعف فكتم فهو شهيد» فيتردد بين القبول والرفض ، لأن في إسناده ضعفاً ، وفي متنه وضعاً ، فمن قبله قال بأن معناه دل عليه الكتاب والسنة من حيث العفة والصبر والكتمان ، ومن رفضه قال بأنه صح عن رسول الله ﷺ أنه عدّ الشهداء ستة ، فلم يذكر قتيل العشق في الشهداء ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون قتيل العشق شهيداً ، لأنه قد يعشق عشقاً يستحق عليه العقوبة .

ثالثها : حسن التلقي في مجالس الصحابة والتابعين رضي الله عنهم الذي كان منطلقه ما رواه البخاري : «لم يكن أصحاب رسول الله متحزقين ولا متماوتين ، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه

دارت حماليق عينيه كأنه مجنون» ، فكان توعد عمر رضي الله عنه بجلد من يشبب بامرأة ، وعزله والي ميسان بقصيدة قالها ، وصدمته بفحش قول سحيم ، منسجماً مع حسن التلقي ، وكذلك كان تلقي سليمان بن عبدالملك لبعض فحش الفرزدق ، وتلقي عمر بن عبدالعزيز لغزل الأحوص ، وعمر بن أبي ربيعة ، صارماً في رفض القبح . وبهذا ذهب الباحث إلى دفع ما روي عن استنشاد عبدالله بن عباس رضي الله عنه لرائية عمر بن أبي ربيعة في بيت الله الحرام ، معتمداً في ذلك على قراءة سند المروية جرحاً وتعديلاً ، وتبصر سياقها ، ومقايسة فقهها بما روي عن ابن عباس وأثر عنه .

رابعها : معيارية الفقهاء التي حددت عدداً من القيود لقوامة الغزل وقبول ألوانه ؛ كأن يكون محرراً من العائد والتعين ، بألا يكون بامرأة معينة أو مصروفاً بالقرائن إليها ، وأن يظل بمنجاة من القبح والفحش في مداره الوصفي والسردي ، وأن يحيد عن المبالغة في وصف المفاتن ، والإفراط في اتقان الصورة ، وهذه القيود مصروفة إلى لونين من الغزل ، أحدهما حسي ذي وظيفية تحسينية ، وثانيهما فني ، ذي غاية إيهامية تخيلية .

أما الرقيق الذي يحرم إنشاؤه وإنشاده ؛ لأنه يهيج قلوب الفتيان ، فينفتح في دلالته على فضاءات عدة ، بعضها خلقي كالمجون والخلاعة واللهو والخسارة والخضوع في القول ، وبعضها فني كالسرد والقص ، وبعضها نفسي كشكوى الهجر والصد ، وبعضها أسلوبي متعلق بالليونة والرقة في التعبير .

وأما باب الرؤية الشعرية فيتراءى فيه عدول في اتجاهين متضادين :

أحدهما : إيجابي ، ناتج الوعي بالفكرة الإسلامية ، إذ فارق حسان بن ثابت وكعب ابن مالك بعض مطالب الشعرية الجاهلية في المقدمة الغزلية والطللية ، سواء في قبض امتداد الغزل واسترساله ، أو في التمكين له في بنائية القصيدة الدعوية بأبعادها المدحية والرثائية والحربية والنقائضية ، أو باستبدال المكان الإسلامي بالمكان الجاهلي ، الذي غدا ذا محمولات شخصيّة ودينيّة وتاريخية .

وأخرج عروة بن أذينة غزله في حمى الطلل والارتحال بمعارض من مزار الطيف والصورة التشبيهية السردية الجماعية ، فحاد بوعي فقهي وعدول فني عن ضغوط الموروث

الجاهلي في حسية الغزل واستقصائه ونمطية بنائه .

ويجري غزل عدد من الفقهاء في هذا الاتجاه من الوعي بالفكرة الإسلامية وضوابطها ، فقد التصق عبيدالله بن عتبة بن مسعود وسلامة القس وعروة بن أذينة بشرف المعنى الغزلي والاقتصاد في الوصف ، لواذاً بما وصل إليه حالهم في العشق الذي يمثله القول المأثور «لا بد للمصدور أن ينفث» ، وإن انحرف بعضهم عن ضابط التعيين وشرطه ، فتوجه الغزل عندهم إلى أسماء بأعيانها كعثمة وسلامة ، وشتت بعض آخر هذا التعيين بتعدد الأسماء وتغيرها .

وثانيهما : سلبي ، ناتج هوى النفس وغلبة الميل وغياب الفطانة ، أو تحرر النفسية من ضوابط العقلية ، بعيداً عن تعامل الشخصيّة الإسلامية ، وقد جرى الغزل في هذا الاتجاه في حقول ثلاثة متباينة الانحراف عن القاعدة :

الأول : الغزل الواله المجنون ، الذي لم يقف الأمر عند أصحابه في العدول عن الضابط العقدي (ألا يكون بِمُعَّينٍ إشهاراً وإكثاراً) ، بل تجاوزه إلى مجون لم يكن قاصراً على الفحش بدلالته البدهية على التناول غير الخلقي في إعلاء قيمة الجسد بالوصف والتجسيم والسرد ، وإنما عدا عنه إلى عبث بالمفاهيم الدينية ، كالشهادة في سبيل الله والقضاء والقدر والابتلاء والبعث والخلود ، وغير ذلك مما فُرِّغ من دلالته المقيدة بالعقيدة ثباتاً ونقلاً ، فأهدرت قيمته الشرعية حين استأنس به الشعراء الغزلون في غير مجاله ، واستدلوا به عدواناً في غير مفهومه وفقهه ، وشواهد ذلك في شعر مجنون ليلى وجميل بثينة ظاهرةٌ دالة .

الثاني : الغزل المتيّم العاقل ، وقد جرى شعراء هذا الغزل مع نظرائهم من شعراء الاتجاه الأول في الإشهار بالمرأة المعينة ، والإكثار من ترديد ذكرها ، عدولاً عن قاعدة الإباحة في هذا المجال بألا يكون الغزل بِمُعَّينٍ ، وجاء العبث ببعض المفاهيم الدينية مجوناً محدوداً جداً عند كثير عزة دون غيره ، لكن عدولاً إيجابياً خلقياً لافتاً يجده الباحث عند كثير عزة والصمة القشيري وابن الدمينة وذي الرمة ، حين استنهض هؤلاء العقلانية في ضبط الميل ، فاحتوى العقل الإحساس بواقعية إسلامية ، لا تهتف للضعف ، ولا

تستكين لصوته ، بل تواجه متغيرات الحب بالصبر ، وتتعافى منه بالتحول والتكيف ، وتزدان فيه الشكوى بالرصانة .

ويظل الاقتصاد في تناول جمال المحبوبة ، وعدم التلبث عنده بالتدقيق والتفصيل والإتقان ، وقصره على الزينة الظاهر ، ظواهر غزلية تجري في مدار من دلالات شرف المعنى وحسنه التي جاء النص على الرضى عنها ، والاستحسان لها عند شداة الأدب ومتذوقيه من المتلقين في مجالس الأدب ونقده .

الثالث : غزل كيدي انحرف به أصحابه عن الجادة القويمة بالمجون ، حين اتخذوا الغزل مطية لإيذاء الآخر ، والكيد له سياسياً واجتماعياً ، بأساليب فنية من اللوحات المشهدية والحكايات السردية ، التي غيب إتقانها البنائي ما قد تنازع فيه خواطر المتلقي من مدى الصدق الواقعي والتاريخي .

وقد رصد البحث مجافاة بعض نصوص هذا اللون من الغزل للصدق الخلقي ، بمنهجية المُحَدِّثين في قراءة سند المرويات بجرح الرجال وتعديلهم ، فضلاً عن المنهج الأسلوبي في الكشف عن التباين الفني بين النصوص ، وتداخل انتمائها .

والمقصدية في كل ذلك أن أكون قد ألهمت الصواب في توجيه النظرية الإسلامية في الغزل ، ورزقت السداد في مقاربة الرؤية الشعرية ، أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتجاوز في هذا العمل عن زلاتي فيما اجتهدت أو وجهت ، وأن يهبه قبولاً ونفعاً ، يتردد أثره ، ويتجدد أجره ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وهو البر الرحيم .

مصطفى عليان مصطفى عليان

عمّان في ٢٨ محرم ١٤٢٧هـ
الموافق ٢٧ شباط ٢٠٠٦م